العلاقات العربية - الأمريكية

في ضوء

أحداث 11 سبتمبر 2001

د. محمد عبد العزيز ربيع

إن العمل الإرهابي الذي استهدف مدينتي نيويورك وواشنطن يوم 11 سبتمبر 2001 لم يكن اعتداء على الولايات المتحدة وحدها، بل كان أيضا اعتداء على حرية كل إنسان مسالم في العالم. ونتيجة لذلك الفعل الإرهابي فقد كل فرد منا جزءا من ذاته وحريته. إذ بينما فقد البعض حياتهم وأحبائهم، فقد آخرون حرية السفر والتمتع به دون خوف، وفقدنا جميعا الإحساس بالطمأنينة غير المشوب بالحذر والشك. لذلك، تطرح أحداث سبتمبر عدة أسئلة هامة:

1- هل هناك ما يبرر ذلك العمل الإجرامي ضد الولايات المتحدة الأمريكية؟
2- هل هناك تفسير مقنع لما حدث؟
3- كيف يمكن لنا أن نحول دون تكرار تلك المأساة؟

بالتأكيد ليس هناك مبرر لما حدث يوم 11 سبتمبر، رغم كل المظالم والادعاءات التي يشتكي منها المعتدون، هذا يفرض بدوره إدانة ذلك الاعتداء وما نتج عنه من خسائر في الأرواح. وإذا تعذر وجود مبرر لما حدث، فإن من الضروري إيجاد تفسير مقنع له. إلا أنه رغم أهمية السؤال المتعلق بدوافع المعتدين ومظالمهم فان أصحاب القرار في أمريكا تركوا هذا السؤال دون إجابة علمية واقعية شافية.

لقد اندفع معظم السياسيين وحتى الصحافيين في إعقاب الحدث مباشرة إلى طرح الأسئلة المتعلقة بكيفية الرد على العدوان، وذلك حتى قبل تحديد هوية المعتدين. نتيجة لذلك بقيت الأسئلة المتعلقة بدوافع المعتدين ومظالمهم دون إجابة.

إن الفشل في تحديد الأسباب الحقيقية لأحداث سبتمبر جعل من الصعب وضع الحدث في إطاره السياسي والاجتماعي-الاقتصادي السليم، وبالتالي اتخاذ القرارات ورسم السياسات

والبرامج الكفيلة بعدم تكراره. إن من غير المشكوك فيه أن العمل كان إجراميا وأن العقل الذي يقف خلفه هو عقل يتعامل بالإجرام، إلا أنه ليس من المشكوك فيه أيضا أن المعتدين تصرفوا بشكل عقلاني وقاموا بالاعداد والتخطيط والتنفيذ بشكل منظم ودقيق. وإذا كان من غير الجائز ان نقبل أعذار ومبررات المعتدين، إلا أن علينا أن نكتشف دوافعهم، وذلك من أجل التعامل معها بعلمية وواقعية تساعدنا على استئصال جذور الإرهاب.

جاء الرد الأمريكي على أحداث سبتمبر بإعلان الحرب على الإرهاب واتجاه القيادة الأمريكية إلى حشد العدد الأكبر من الجهود الدولية لشن تلك الحرب. ومن أجل تبرير تلك الحرب التي استهدفت أولا وقبل كل شيء منظمات ودول إسلامية طرح الرئيس الأمريكي تساؤلا غريبا لم يطرح من قبل : " لماذا يكرهوننا". ولقد تبع بوش في طرح التساؤل نفسه عدد من قادة الدول الأوربية، وفي مقدمتهم توني بلير رئيس وزراء بريطانيا. وبينما حاول الرئيس الأمريكي التمييز بين الإسلام والإرهاب، فإن رئيس وزراء إيطاليا والعديد من الصحافيين الغربيين، خاصة الأمريكيين، وقادة الحركات الدينية المتعصبة في أمريكا اتجهوا إلى إلصاق تهمة الإرهاب بالإسلام والمسلمين. وعلى سبيل المثال، قال القس فرانكلين جراهام:" إن إله المسلمين ليس نفس الإله الذي يؤمن به المسيحيون. إنه إله مختلف، وإنني أعتقد بأنه إله شرير، وأن الإسلام ديانة شريرة" (مجلة تايم الصادرة يوم 10 ديسمبر 2001).

في ضوء مثل هذه التصريحات والتوجه الحكومي الرسمي إلى معاملة العرب والمسلمين معاملة خاصة تقوم على الشك بهم والخوف منهم، خاصة في المطارات، كان من الطبيعي أن تقع العديد من الاعتداءات على أناس اشتبه بانهم عرب أو مسلمون في عدد من المدن الأمريكية. وإذا قارنا تجربة العرب والمسلمين في أمريكا بتجربة الأمريكيين في الدول العربية والإسلامية فإن النتيجة ستظهر بوضوح أن التفرقة والكراهية الأمريكية تجاه العرب والمسلمين هي أوسع وأعمق بكثير من التفرقة والكراهية العربية والإسلامية تجاه الأمريكيين.

هل حقا يكره العرب والمسلمون الغرب؟ بالتأكيد، ليس هناك كراهية عربية أو إسلامية للغرب، لكن هناك غضب عربي وإسلامي تجاه السياسة الأمريكية الشرق أوسطية، خاصة انحيازها اللامحدود إلى جانب اسرائيل وعداءها غير العقلاني للعراق.

كتب E. J. Dionne في جريدة الواشنطن بوست يوم 23 نوفمبر 2001 يقول: " بعد الرد الشعبي في أفغانستان على نجاح الغرب في هزيمة طالبان يمكننا أن نستخلص أن مقولة (لماذا يكرهوننا) كانت مقولة خاطئة. إن من الواضح أن هناك الكثيرين في العالم الإسلامي وفي العالم الثالث بوجه عام لا يكرهوننا على الإطلاق". لكن الحقيقة تبقى أنه قبل أن يتوصل السيد ديون وغيره إلى هذه النتيجة كانت الشعارات التي رفعت في الغرب لتبرير إعلانه "الحرب على الإرهاب" قد تسببت في إلحاق الكثير من الضرر بالعلاقات العربية-الأمريكية، خاصة على المستوى الشعبي، وذلك إلى جانب إلحاقها الضرر بالكثيرين من العرب المسلمين في الغرب عامة.

إن أي أمريكي أو أوربي عاش في البلاد العربية أو جاءها زائرا أو تعامل مع أهلها من تجار او ساسة أو مثقفين يعرف تماما أن العرب لا يكنون عداء للغرب أو كراهية لثقافته. وفي الواقع، سيكون من الصعب، إن لم يكن من المستحيل، إيجاد أمريكي أو أوربي واحد يتمتع بالصدق والأمانة يقول بانه تعرض عمدا للإهانة أو التفرقة أو أحس بالكراهية والعداء أثناء وجوده في البلاد العربية. وإذا كانت الادعاءات الغربية صحيحة، خاصة الإعلامية-الصهيونية منها، بأن العرب المسلمين يكرهون الغرب ويحتقرون ثقافته وتقاليده إلى درجة التفكير في تدمير طريقة حياته، فكيف يمكن لهؤلاء تفسير الشغف العربي والإسلامي بالسفر إلى الغرب، وتوجه عشرات الآلاف من أبنائه سنويا لأمريكا وأوربا من أجل الدراسة أو الهجرة.

وإذا كانت الأغلبية العربية لا تكره الغرب، فإن أغلبية العرب والمسلمين تكره سياسة أمريكا الشرق أوسطية. لذلك كان السؤال الأجدر بالطرح ليس "لماذا يكرهوننا" وإنما ما هو الخطأ في سياسة ومواقف أمريكا تجاه العرب والمسلمين عامة. كان من القلة الذين طرحوا هذا السؤال في الغرب kai Bird و Martin Sherwin. ويبدو من إجابتهم على هذا التساؤل إنهما يعتبران أن فشل السياسة الأمريكية في التعامل بشكل عادل مع مشاكل وتطلعات العالم الثلث ربما كان المسؤول الحقيقي عن أحداث 11 سبتمبر. كتب Kai Bird و Martin Sherwin يوم 12 ديسمبر 2001 في جريدة الواشنطن بوست يقولان:" على مدى نصف قرن افترضت المؤسسة المسؤولة عن السياسة الخارجية أنه بإمكان أمريكا التصرف كما تشاء في العالم الثالث. لقد حاربنا الحرب الباردة في معارك على أرض العالم الثالث. إن قائمة التدخل الأمريكي طويلة جدا: في إيران، كوريا، جواتمالا، كونغو، كوبا، فيتنام، تشيلي، نيكاراغوا،

وبالطبع جميع بلدان الشرق الأوسط. ونتيجة لذلك مات الملايين. وعل حساب مصلحتنا قمنا بالتضحية بخط دفاعنا الأول، ألا وهو سمعتنا بالالتزام بالعدل. وفي ضوء هذا يمكن القول أن 11 سبتمبر كان الفشل الأعظم لسياسة قامت بتدمير سمعتنا بشكل منتظم ومتواصل".

قال السيد Jhon Duke Anthony رئيس مجلس العلاقات العربية الأمريكية يوم 2 نوفمبر 2001 أنه لم يكن لأمريكا أعداء في الشرق الأوسط قبل عام 1947. "كانت صورة أمريكا في جميع أنحاء المنطقة العربية من المغرب إلى مسقط هي صورة بلاد الحرية ووطن الشجعان. لكن، للأسف، معظم الود تجاه أمريكا تبخر لأسباب عدة: السبب الأقدم والأهم يتعلق بفلسطين". إن تصاعد النقد و العداء لسياسة أمريكا في البلاد العربية والإسلامية هي ردود فعل سلبية لاستمرار الصراع العربي-الإسرائيلي، والعقوبات المفروضة على العراق، وفقدان الحرية، وانتشار الفقر في غالبية الأقطار العربية والإسلامية. ولكن، وقبل تحليل هذه القضايا، سوف نحاول نقاش قضية علاقة الإسلام بالإرهاب الدولي.

الإسلام و الإرهاب

كان الإسلام، ولفترة طويلة، غير معني بالسياسة أو العنف السياسي، وذلك كما كان عليه الحال بالنسبة للديانة المسيحية في العصور الوسطى. ولقد اتجه الإسلام خلال فترة عدم الانخراط في السياسة إلى التركيز على اقناع المؤمنين بالقبول بأوضاعهم المعيشية باعتبار تلك الأوضاع مكتوبة عليهم، وأن جزاء المؤمن الحقيقي هو في الحياة الآخرة وليس في الحياة الدنيا. ورغم حروب التحرير العديدة التي خاضتها الشعوب العربية خلال القرن العشرين وساهمت في إنهاء الاستعمار، فإن الإسلام بقي يعيش ويعمل على هامش الأحداث ولم يقم بأي دور فاعل في تلك الحروب أو حتى في النضال الشعبي من أجل الحرية والعدالة في المجتمع. وفي الواقع، لم يكن أي زعيم عربي وطني في القرن العشرين من دعاة الإسلام السياسي المتطرف.

في النصف الثاني من القرن العشرين، وقعت العديد من الأحداث والتطورات التي تسببت، بين أشياء أخرى، في دفع العديد من المنظمات الإسلامية إلى الانخراط في العمل السياسي واتخاذ مواقف متشددة حيال بعض القضايا الاجتماعية والسياسية. ومن أهم تلك الأحداث والتطورات:

1- هزيمة العرب امام إسرائيل في عام 1967 ونجاح الأخيرة في احتلال اجزاء كثيرة من الأراضي العربية.

2- قيام الاتحاد السوفيتي بغزو أفغانستان في عام 1979.

3- نجاح الثورة الإيرانية في نفس ذلك العام في الإطاحة بنظام الحكم الملكي وتأسيس نظام حكم إسلامي في إيران على أنقاضه.

4- قيام اسرائيل مجددا بغزو لبنان في عام 1982 واحتلال بيروت وإجبار منظمة التحرير الفلسطينية على مغادرة الأراضي اللبنانية.

5- انطلاق الانتفاضة الفلسطينية عام 1989.

6- وقوع حرب الخليج في عام 1991/1990 وتداعياتها السياسية والاقتصادية، خاصة على الشعب العراقي.

هزيمة 1967

كان من نتائج الهزيمة العربية على يد القوات العسكرية الاسرائيلية في عام 1967 قيام اسرائيل باحتلال الأجزاء المتبقية من فلسطين (الضفة الغربية وقطاع غزة) وهضبة الجولان السورية وصحراء سيناء المصرية. وفي ضوء هزيمة الأنظمة العربية "الثورية" وفشل الأحزاب السياسية والمنظمات الشعبية في القيام بأي دور فاعل أثناء الحرب وفي أعقاب الهزيمة، فإن الهزيمة بدت على حقيقتها كهزيمة حضارية شاملة رفضت استثناء أي وجه من أوجه الحياة العربية. ولما كانت الأنظمة العربية، خاصة التي شملتها الهزيمة بشكل مباشرة، قد اتجهت، وخلافا لمنطق الأشياء والأمانة مع الذات والعلم، إلى التستر على حجم الهزيمة والحيلولة دون نقدها وتحليل اسبابها، أصبحت الهزيمة بكل أبعادها الحقيقة الأهم في الحياة العربية. ولقد ترتب على تلك الهزيمة تراجع 3 قضايا أساسية:

1- قضية الإيمان بالعمل الجماعي - الحزبي المنظم،
2- قضية التوجهات الثورية والاشتراكية والقومية،
3- قضية الوحدة العربية والمصالح العربية الأمنية المشتركة.

وهذا خلف بدوره فراغا سياسيا وتنظيميا وعقائديا وفكريا دفع الشعوب العربية، خاصة عامة الناس منها، إلى التاريخ بحثا عن تفسير للهزيمة وأداة للخروج منها. وحيث أن الإسلام كان ولا يزال أهم انجازات الأمة العربية وأهم الأدوات التي مكنتها في الماضي من توحيد صفوفها

وتحقيق انتصارات باهرة، فإن الإسلام وجد نفسه ملجأ لاحتواء حالة الضياع الفكري، وأداة عمل سياسي/ثقافي للخروج من الهزيمة.

الغزو السوفيتي لأفغانستان

تسبب الغزو السوفيتي لأفغانستان من ناحية، والرد الأمريكي على ذلك الغزو من ناحية أخرى في نشوء حركة المجاهدين كحركة إسلامية عسكرية بهدف تحرير أفغانستان من الاحتلال السوفيتي والفكر الماركسي. ولقد قام عملاء الولايات المتحدة الأمريكية، يساعدهم بعض المسلمين والدول العربية والإسلامية، بتجنيد وتدريب وتسليح آلاف المسلمين وتنظيمهم في حركة المجاهدين. وبينما قامت السعودية وبعض الدول العربية الأخرى والعديد من الميسورين العرب بتقديم الدعم المادي للمجاهدين، قام علماء السعودية وباكستان بشكل خاص بتوفير الغطاء العقائدي والتبرير الديني للجهاد ضد السوفييت. أما المخابرات الأمريكية فقد قامت بتقديم العتاد والتدريب والتوجيه العسكري للمجاهدين. وهكذا، وبعد عدة قرون من البقاء على هامش الحياة السياسية، تم تسييس الإسلام وتوجيهه نحو التطرف والحرب لخوض واحدة من أهم معارك الحرب الباردة لحساب الولايات المتحدة الأمريكية ودفاعا عن مصالح وقيم الغرب، وهي الحرب التي راح ضحيتها عشرات الالاف من العرب والمسلمين وتسببت في تشريد ملايين الأفغانيين وإدخال أفغانستان فيما بعد في حروب أهلية أرجعتها - في ظل حكم طالبان- إلى عصور الظلام.

عندما توقفت الحرب في أفغانستان في عام 1989، عادت الأغلبية العظمى من المجاهدين على أوطانهم، الا أن معظم هؤلاء كانوا بدون وظائف وبلا مؤهلات علمية أو فنية تساعدهم على الحصول على وظائف في بلادهم. لقد كانت خبرتهم الأهم تؤهلهم لخوض حرب عصابات لا غير. إلا أن نجاحهم في أفغانستان وترسخ فكرة الجهاد في قلوبهم، دفعت أغلبية هؤلاء، والذين اكتسبوا لقب " الأفغان العرب"، نحو نشر رسالتهم الدينية في البلاد العربية وتقديم خبرتهم للحركات الإسلامية ذات الأهداف المتشابهة. ولقد تبع ذلك تأسيس منظمة القاعدة للعناية بالمجاهدين، و الاستمرار في تدريب المتطوعين وتسليحهم وتوجيههم لضرب أهداف جديدة داخل وخارج البلاد العربية. وهذا بدوره دفع المنظمات الإسلامية المتطرفة إلى شن أعمال إرهابية ضد الحكومات التي اعتبرتها فاسدة سياسيا وغير ملتزمة بالشريعة دينيا. وحيث

أن الولايات المتحدة الأمريكية كانت ولا تزال أهم القوى التي تدعم غالبية الأنظمة العربية المستهدفة، فإن الولايات المتحدة عموما وبعض رموز التواجد الغربي في البلاد العربية خصوصا أصبحت هي الأخرى أهدافا مشروعة لنشاط تلك الجماعات.

لقد قام بعض المثقفين العرب، ومنذ الثمانينات، بالتحذير من مغبة التغاضي عن نشاط الحركات الإسلامية المتطرفة ومحاولة مجاراتها من الناحية الفكرية -العقائدية. وعلى سبيل المثال، كتبت مقالا في أوائل الثمانينات تحت عنوان" حرية الوعي الديني" قلت فيها بأن دعاة التطرف الديني لا يعرفون الحلول الوسط ولا يؤمنون بفكرة التسامح أو الديمقراطية، وأن محاولات إرضائهم لن تنجح أبدا، وذلك لحدية فكرهم وأصولية مواقفهم، وأن استمرار محاولات الترويض والمهادنة ستؤدي بالنتيجة لوقوع صدام في المجتمع. كذلك قلت ردا على سؤال طرحه أحد المشاركين في مؤتمر "احاديث أوربية" الذي انعقد في السويد في عام 1991 بان الإسلام السياسي المتطرف يشكل خطرا على المجتمعات العربية يفوق الخطر الذي يشكله على المجتمعات الأوربية بكثير. وفي الواقع، بينما لا يزيد عدد الضحايا الأمريكيين الذي سقطوا نتيجة لأعمال جماعات اسلامية متطرفة ضد أهداف أمريكية في افريقيا والبلاد العربية وامريكا عن 4000 شخص، يقدر عدد ضحايا الإرهاب السياسي الذي قادته وتسببت به الحركات الإسلامية المتطرفة في الجزائر وحدها بأكثر من 100000 شخص.

الثورة الإسلامية الإيرانية

في عام 1979 وقعت ثورة إسلامية في إيران كان من نتائجها سقوط نظام حكم الشاه وإقامة نظام حكم إسلامي على أنقاضه. ورغم ثورية الحركة الإسلامية الإيرانية إلا انها، ومقارنة مع غيرها من ثورات دينية وعلمانية، كانت ثورة بيضاء إلى حد كبير، إذ لم تتسبب في قتل الشاه او أي فرد من أفراد عائلته او حتى حاشيته من الساسة الفاسدين. إلا أن اتجاه نظام الحكم الإيراني إلى التمسك بالتقاليد الدينية ومعاداة أمريكا، ورفض فكرة التعددية السياسية والفكرية، وتحديد مجالات الحرية الاجتماعية والثقافية أدى على فشل الثورة الإيرانية في تحرير الإنسان الإيراني من الكبت والخوف والحاجة. رغم ذلك، نجحت الثورة الإيرانية في إقناع عشرات الملايين من المسلمين بأن بإمكان الإسلام السياسي أن يهزم الوجود الغربي في بلاده وأن ينتصر على الحكام الموالين للغرب، وبالتالي تقديم حل "إسلامي" بديل لحالة الفساد والتخلف والتبعية والضياع التي تعاني منها المجتمعات العربية والاسلامية بشكل عام.

الغزو الإسرائيلي للبنان

قامت اسرائيل في العام 1982 بغزو لبنان واحتلال بيروت واجبار منظمة التحرير الفلسطينية وقواتها العسكرية على الخروج من لبنان، وذلك بالاضافة الى ارتكاب مذابح صبرا وشتيلا التي راح ضحيتها حوالي 1800 لاجئ فلسطيني. وحيث أن الغزو الاسرائيلي جاء خلال سنوات الحرب الاهلية اللبنانية والتي تمحورت أساسا بين قوات لبنانية مسيحية متطرفة وقوات إسلامية فقيرة، فإن خروج الفلسطينيين القصري من لبنان أدى إلى الإخلال بالتوازن السياسي والعسكري القائم حينئذ على الساحة اللبنانية. وفي أعقاب رحيل الفلسطينيين قام بعض نشطاء الطائفة الشيعية بتأسيس "حزب الله" كمنظمة خيرية وسياسية ذات جناح عسكري وذلك لحماية الشيعة عامة ومواصلة المقاومة ضد قوات الاحتلال الإسرائيلي خاصة. ومما تجدر الإشارة إليه هنا ان غالبية العناصر المؤسسة لحزب الله، خاصة الجناح العسكري منه، كانت من أنصار حركة المقاومة الفلسطينية ومن كوادرها العسكرية قبل رحيل الأخيرة من لبنان. ولقد اتجه حزب الله، ومنذ تأسيسه الى التعاون مع الثورة الإيرانية ذات العقيدة الشيعية المماثلة حيث قامت تلك الثورة بامداد الحزب بالمال لإنجاح حركته كمنظمة خيرية، وبالعتاد العسكري والفتاوى الدينية لإنجاحه كقوة عمل سياسي ومقاومة عسكرية لتحرير الأراضي اللبنانية من قوى العدوان والاحتلال الإسرائيلية.

كان أول الأعمال الاستشهادية التي قام بها حزب الله هي العملية التي استهدفت القوات الأمريكية في لبنان في عام 1983 وراح ضحيتها العشرات من الجنود الأمريكيين. ولقد كان الرئيس ريجان قد أرسل تلك القوات لتهدئة الأوضاع المتردية التي خلفها الغزو الإسرائيلي وزادت حدتها مذابح صبرا وشتيلا. ولقد تبع تلك العملية، والتي نجحت في حمل القوات الأمريكية على مغادرة لبنان، قيام حزب الله خلال الثمانينات والتسعينات بعمليات مماثلة ضد القوات الإسرائيلية في الجنوب اللبناني. في العام 2000 اعترفت اسرائيل بالهزيمة وقامت بإنهاء احتلالها لجنوب لبنان الذي دام حوالي 20 سنة، وذلك فيما عدا مزارع شبعا التي لا تزال تخضع للاحتلال الإسرائيلي. ان نجاح العمليات الاستشهادية في إضعاف الارادة الإسرائيلية وإجبار الحكومة الاسرائيلية على سحب قواتها من لبنان شجع بعض حركات المقاومة الفلسطينية على تبني العمليات الاستشهادية في فلسطين، وذلك في محاولة لتحرير أنفسهم

وأرضهم من الاحتلال والعدوان الإسرائيلي. ولقد بدأت تلك العمليات في أوائل التسعينات وهدأت في أواسط التسعينات أثناء فترات الأمل في نجاح المفاوضات في التوصل إلى اتفاق بشأن انهاء الاحتلال الإسرائيلي وتحرير الضفة الغربية وقطاع غزة.

كتب الصحفي الأمريكي Daniel Williams في جريدة الواشنطن بوست يوم 7 ديسمبر 2001 يقول:" في أواسط التسعينات، عندما انسحبت القوات الإسرائيلية من المدن الفلسطينية الرئيسية، تناقصت أعداد المؤيدين لحماس بشكل كبير. وعندما قامت حماس بعمليات استشهادية أدت إلى قتل العديد من الإسرائيليين في القدس وتل أبيب غضب الكثير من الفلسطينيين لدرجة دفعت قادة حماس إلى الاختفاء من الشوارع تجنبا للإهانة والضرب. وعندما توقفت عمليات الانسحاب الإسرائيلي في ظل إدارة نتنياهو وباراك ونشطت حركة بناء المستوطنات مجددا زاد عدد المؤيدين لحماس من جديد وعادت العمليات الاستشهادية لتواصل نشاطها".

ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن حركة حماس تأسست في الثمانينات كمنظمة خيرية وحركة سياسية في ظل تشجيع إسرائيلي، وذلك من أجل منافسة منظمة التحرير الفلسطينية وإضعاف مصداقيتها ونفوذها في الضفة الغربية وقطاع غزة. اعتقدت اسرائيل في ذلك الوقت كبقية الدول الغربية أن الإسلام دين غير سياسي وأن تشجيع اتباعه على تأسيس منظمات عمل خيرية من شأنه إضعاف نفوذ القوى القومية، وهي قوى كانت ولا تزال تقاوم النفوذ الغربي وترفض تواجده على الأراضي العربية. لكن التاريخ يشير، وبوضوح بالغ، إلى أن القوى الدينية المتطرفة، سواء أكانت إسلامية أو يهودية أو مسيحية أو هندوسية تتجه عادة إلى رؤية الأشياء من زاوية ضيقة جدا لا ترى من الألوان غير الأبيض والأسود، أو الخير والشر. وهذا يجعل تلك القوى، حالما يتم تنظيمها واستحواذها على الثقة بالنفس، تتجه نحو التطرف اللامتناهي سعيا لتحقيق أهدافها الحدية بغض النظر عن العواقب. وعلى سبيل المثال، يوجد اليوم في أمريكا منظمات مسيحية تعتدي على العيادات التي تجرى فيها عمليات الإجهاض وتقوم بقتل الأطباء الذين يجرون تلك العمليات، ويوجد في فلسطين منظمات يهودية عنصرية تعتدي على الفلسطينيين بالقتل وتقوم بتدمير منازلهم وحرق مزروعاتهم ومصادرة أراضيهم، ويوجد في العالم مسلمون يعتدون على الأمريكيين ويقومون بقتلهم وقتل غيرهم من المسلمين الذين يختلفون

معهم في الرأي، ويوجد في الهند هندوس يقتلون المسلمين ويقومون بهدم المساجد وحرق الكنائس.

حرب الخليج والعقوبات الاقتصادية

قات القوات العراقية في أغسطس 1990 باحتلال الكويت وإعلان ضمها إلى العراق. وفي ضوء رفض القيادة العراقية للمطالب العربية والدولية بسحب قواتها من الكويت، قامت أمريكا بحشد تحالف دولي كبير واستصدار القرارات الضرورية من مجلس الأمن الدولي لشن حملة عسكرية لتحرير الكويت. وبعد نجاح الحملة العسكرية في تحقيق أهدافها والتسبب في قتل ما لا يقل عن ربع مليون عراقي، قام مجلس الأمن الدولي بقيادة أمريكا بفرض عقوبات اقتصادية شاملة وظالمة على العراق، وذلك بحجة منع العراق من تطوير وامتلاك أسلحة الدمار الشامل.

بعد تحرير الكويت وبينما كانت قوات التحالف تدخل الأراضي الكويتية، قامت أعداد كبيرة من العرب غير الكويتيين العاملين في الكويت بمغادرة البلاد خوفا من عمليات انتقام محتملة. وبينما كانت جموع المهاجرين تجتاز الحدود الكويتية-العراقية حاملين أولادهم وبعض أمتعتهم قامت قوات الطيران الأمريكية، خاصة طائرات الهليوكابتر، بإبادة الآلاف منهم. ولقد أعطى الطيارون الأمريكيون الانطباع بأنهم كانوا يتسلون بقتل الأبرياء. وهذا أدى إلى الهاب مشاعر الملايين من العرب والمسلمين وغضبهم وتعميق أحاسيسهم بالموقف العدائي الأمريكي الذي لا يفرق بين العسكري والمدني، بين البريء والمذنب. وعندما تبين أن الأمريكيين لا ينوون ترك منطقة الخليج بعد تحرير الكويت وتحجيم العراق، شعرت القوى العربية المناوئة للهيمنة الأمريكية، خاصة الإسلامية المتطرفة منها، بأن الوجود الأمريكي يمثل موجة جديدة من الاحتلال الأجنبي الذي يستهدف السيطرة على المنطقة العربية وعلى ثرواتها النفطية وحماية عملاء أمريكا في المنطقة.

رغم اتجاه العرب بشكل عام لدعم القضايا الإسلامية، لم يحصل الأفغان العرب ولا أسامة بن لادن ولا قوات القاعدة على دعم أو تأييد عربي واسع في أية فترة كانت. إلا انه في أعقاب حرب الخليج، ونتيجة لرؤية أطفال العراق يعانون الفقر ويموتون بالآلاف بسبب الجوع والمرض فإن أعداد متزايدة من العرب اتجهت إلى التعاطف والتجاوب مع رسالة بن لادن المعادية لأمريكا. كما أن مناظر أطفال فلسطين وهم يعانون كسر الأيدي والأرجل والقتل على

يد القوات الإسرائيلية أدى الى تعميق الاحساس العربي بالاهانة وتصميم القلة على الانتقام من اسرائيل وأمريكا التي كانت ولا تزال تدعمها بلا حدود وتؤيد سياستها الإجرامية بلا تحفظ. إن الدعم الأمريكي غير المحدود لاسرائيل من ناحية وقيام أمريكا بإحباط كل المحاولات الدولية لإنهاء العقوبات المفروضة على العراق من ناحية ثانية، تسببت في زيادة أعداد المتعاطفين مع رسالة بن لادن والراغبين في الانضمام إلى صفوف القاعدة.

في ضوء ما تقدم يبدو من الواضح أن الجماعات الإسلامية المتطرفة التي تهتم بالإرهاب اليوم ولدت نتيجة لفعل أمريكي ومن أجل خوض معركة طاحنة دفاعا عن قيم الغرب ومصالحه في أفغانستان، وكرد فعل على سياسات الاجرام والعدوان والاحتلال والتوسع الإسرائيلية في لبنان وفلسطين. إن الارهاب المنبثق عن عمليات منظمات إسلامية متطرفة لا يزال يتغذى على سياسة أمريكية تصر على تجويع أطفال العراق وتركيع العرب وتقوم بحماية الإجرام الإسرائيلي، ويستمر بسبب انتشار الفساد السياسي والكبت الاجتماعي والتخلف الاقتصادي في غالبية البلاد العربية والإسلامية. إلى جانب ذلك تقوم العولمة اليوم وما يرافقها من تطورات وإجراءات اقتصادية واجتماعية-ثقافية بتعميق الفجوة بين الأغنياء والفقراء، المثقفين والعامة، الحاكم والمحكوم في جميع الدول النامية. وهذا يؤدي بدوره إلى تعميق حالة الاغتراب، وضعف الشعور بالانتماء للوطن، ويدفع في اتجاه التطرف والعنف. إن هذه هي بعض الحقائق التي لا مناص من الاعتراف بها ومعالجتها إذا ما أريد للحرب على الارهاب ان تنجح.

إن هزيمة الارهاب تستوجب ميلاد جيل جديد في الشرق الأوسط في بيئة اجتماعية-سياسية- اقتصادية جديدة يخيم عليها الأمل ويسودها التفاؤل. بيئة تتصف بتواجد وتزايد الفرص الاقتصادية واحترام الحرية الاجتماعية وتشجيع التعددية السياسية و القبول بالتعددية الثقافية والايمان بالتسامح ورفض العنف. وهذا يتطلب بدوره التعامل مع جذور الأزمة السياسية والاقتصادية والثقافية الراهنة بأمانة وصراحة وشجاعة. ومن جذور تلك الأزمة:

1. الصراع العربي-الإسرائيلي،
2. الأزمة العراقية،
3. الأوضاع المعيشية المتردية في البلاد العربية،
4. الفقر والعولمة.

الصراع العربي-الإسرائيلي

لقد بدأ الصراع العربي-الإسرائيلي مع ميلاد الحركة الصهيونية في السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر، وتصاعدت حدته أثناء الحرب العالمية الثانية، وتسببت حتى الآن في وقوع عدة حروب اقليمية وقتل عشرات الآلاف، بعضهم من اليهود وأغلبيتهم من العرب. وعلى سبيل المثال، تسبب الغزو الإسرائيلي للبنان في العام 1982 في مقتل حوالي 17500 لبناني وفلسطيني. أما أحداث انتفاضة الأقصى والتي بدأت في أواخر العام 2000 وردود الفعل الإسرائيلية عليها فقد أدت حتى الآن إلى مقتل ما يزيد عن 1500 شخص، حوالي 75% منهم من الفلسطينيين. وحيث أن عدد سكان الضفة الغربية وقطاع غزة يساوي تقريبا 1% من سكان الولايات المتحدة الأمريكية فقط، فإن مقتل حوالي 70 فلسطينيا في الشهر يعني قيام إسرائيل بارتكاب مجزرة في فلسطين أكبر حجما من مجزرة 11 سبتمبر كل أسبوعين فقط.

رغم الجرائم الإسرائيلية المتواصلة وقيام حكومة شارون بإعادة احتلال الأراضي والمدن الفلسطينية الخاضعة لإدارة السلطة الفلسطينية في شهر أبريل عام 2002 وارتكاب مجزرة جنين وقتل العشرات في نابلس وغيرها من مدن فلسطين، فإن الدعم الأمريكي لإسرائيل لا يزال في تزايد. وفي الواقع لا تقوم أمريكا بتقديم الدعم المادي والعسكري والسياسي لإسرائيل فقط، بل تقوم أيضا بالحيلولة دون اتخاذ قرارات دولية بإدانة إسرائيل ودون نجاح أية مبادرة دولية غير أمريكية في تحريك عملية السلام العربية-الإسرائيلية. ومما يدل على الانحياز الأمريكي غير المحدود وغير الأخلاقي إلى جانب إسرائيل قيام الحكومة الأمريكية- حسب مستندات مجلس الأمن الدولي- باستخدام حق النقض (الفيتو) 6 من كل 7 مرات إما لحماية إسرائيل من النقد والإدانة الدولية، أو للدفاع عن سياسات التوسع والاستيطان والاجتياح الإسرائيلية أو للحيلولة دون قيام هيئة الأمم المتحدة بالتعامل قانونيا وأخلاقيا مع الحقوق الفلسطينية المشروعة.

لقد تجاوز الاحتلال الإسرائيلي للضفة الغربية وقطاع غزة عامه الخامس والثلاثين وهذا يجعله أطول احتلال عرفه التاريخ الحديث منذ بداية القرن الماضي. ولقد وصف الحاخام البريطاني David Goldberg الاحتلال الإسرائيلي بأنه "آخر احتلال استعماري في العالم".

بينما تم حل الصراع مع مصر والأردن في عامي 1979 و 1994 على التوالي، بقي الصراع مع الفلسطينيين والسوريين واللبنانيين دون حل حتى الآن. ورغم ما يعترض الحل مع هذه الأطراف من مشاكل، إلا أن مبادئ الحل معروفة وتطبيق قرارات هيئة الأمم المتحدة كفيل بحل ذلك الصراع، طبعا إذا وافقت إسرائيل والتزمت أمريكا باحترام الشرعية الدولية وليس شرعية الغاب الإسرائيلية. إن قيام أمريكا بالضغط على إسرائيل والتعاون مع المجتمع الدولي لتطبيق قرارات هيئة الأمم التحدة التي اعترفت بها أمريكا وصوت إلى جانبها، ألا وهي قرارات 194، 242، 338 كفيل بحل القضية الفلسطينية وإنهاء الصراع العربي-الإسرائيلي وتحقيق السلام والاستقرار في الشرق الأوسط. ودون إحلال سلام عربي-إسرائيلي على أسس من الواقعية والعدالة فإن أمريكا لن تنعم بالسلام، كما لن تنعم إسرائيل بالسلام أو الطمأنينة.

الأزمة العراقية

تعتبر الأزمة العراقية ثاني القضايا الملحة التي تحتاج لعلاج كي يكون بالإمكان عودة السلام والاستقرار لمنطقة الشرق الأوسط وتقويض دعائم الإرهاب السياسي. ان استمرار العقوبات الاقتصادية على العراق لمدة 11 سنة متواصلة أدى إلى معاناة الشعب العراقي، خاصة الأطفال، وتسبب في تعميق احساس الشعوب العربية بالاهانة والإحباط. إذ بينما تسببت تلك العقوبات في موت ما لا يقل عن مليون عراقي، قامت بحرمان الحكومة العراقية من توفير فرص الغذاء والدواء والتعليم لشعب تتزايد أعداده بسرعة، وتوفير الإمكانات المادية للمؤسسات العلمية والتعليمية والاجتماعية.

تدعي الحكومة الأمريكية ان الهدف من استمرار العقوبات هي حرمان العراق من القدرة على امتلاك أسلحة الدمار الشامل، وأن على العراق القبول بعودة المفتشين الدوليين الذين طردوا في العام 1998 دون قيد أو شرط. وعلى الرغم من شرعية المطالبة بعودة المراقبين الدوليين فان استمرار العقوبات لا يخدم هدفا إنسانيا أو أخلاقيا، وذلك إلى جانب فشل تلك العقوبات في تحقيق أهدافها الاستراتيجية. وإذا كان لتلك العقوبات من إنجاز فعلي فيتلخص في موت ملايين الأطفال العراقيين من المرض وسوء التغذية، وتدمير البنية التحتية العراقية، وتعميق الشعور بالعداء للسياسة الأمريكية في جميع الدول العربية والإسلامية، وتزايد أعداد المتعاطفين مع دعوة بن لادن وأعمال العنف التي تمارسها المنظمات الإسلامية المتطرفة.

وبينما يبدو أن جميع دول العالم تقريبا تؤيد الموقف الأمريكي الذي يدعو إلى حرمان العراق من فرصة امتلاك أسلحة الدمار الشامل، يبدو أنه لا توجد دولة في العالم فيما عدا إسرائيل وبريطانيا تؤيد استمرار فرض العقوبات الاقتصادية على العراق. ولهذا أصبح على الإدارة الأمريكية أن تختار بين أمرين: استمرار العقوبات أو عودة المراقبين الدوليين. فإذا كان الهدف الأهم هو الحيلولة دون نجاح العراق في تطوير وامتلاك أسلحة غير تقليدية فإن عودة المراقبين الدوليين يجب أن يحظى بالأهمية والأولوية. وهذا ممكن، بل يجب أن يكون ممكنا إذا رفعت العقوبات عن العراق بحيث تكون عودة المراقبين هي الشرط الأول والأهم لإنهاء تلك العقوبات. ومن أجل ضمان التزام العراق بالسماح للمراقبين الدوليين بالقيام بمهمتهم دون عراقيل، وجب أن يقترن قرار رفع العقوبات بعودة المراقبين والنص على إعادة فرض العقوبات مجددا إذا تصرفت العراق بشكل يجعل مهمة المراقبين صعبة وغير قابلة للتنفيذ.

الأوضاع المعيشية في البلاد العربية

تشعر غالبية الشعوب العربية بالغضب والإحساس بالمهانة، وذلك لغياب الحرية السياسية والفرص الاقتصادية وحتى الأمل في مستقبل أفضل. فأغلبية النخب العربية، خاصة السياسية منها، تتصف اليوم بالفساد السياسي والجهل الاقتصادي والإفلاس الفكري. إذ لا تملك تلك النخب رؤية مستقبلية ولا خطة عمل اقتصادية تنموية ولا برامج تطوير سياسية أو اجتماعية-ثقافية قادرة على أحداث التحولات المجتمعية المطلوبة لمواكبة مسيرة التطور الحضارية الانسانية. ان العرب عموما، وعلى الرغم من أن أهم أسباب تخلفهم تكمن في ثقافتهم الشعبية المتداولة المتقادمة، يشعرون بان أوضاعهم الحياتية المتردية هي إحدى نتائج السياسة الأمريكية الشرق الأوسطية. وتتصف تلك السياسة بالانحياز الكامل لإسرائيل وبالجشع والظلم الذي يستهدف السيطرة على الثروة النفطية والأسواق العربية.

كتب Robert Fisk في جريدة الأندبندنت البريطانية يوم 16 سبتمبر 2001 يقول :" لا يجوز لوم إسرائيل بالنسبة لما حدث الأسبوع الماضي (أحداث 11 سبتمبر). لكن فشل أمريكا في التصرف بشكل أخلاقي في الشرق الأوسط وقيامها ببيع الصواريخ لأولئك (الإسرائيليين)الذين يستخدمونها ضد المواطنين العزل، وعدم اكتراثهم بموت عشرات الآلاف من أطفال العراق بسبب العقوبات التي تصر أمريكا على استمرارها هي قضايا ذات علاقة حميمة بالمجتمع الذي أفرز أولئك العرب الذين اشعلوا النار في أمريكا في الأسبوع الماضي."

ان عمق وشمولية الهيمنة الأمريكية على العالم بوجه عام، وقدرتها غير المحدودة تقريبا على الفعل، واعتماد إسرائيل عليها دفع غالبية المثقفين والساسة العرب إلى الاعتقاد بأن أمريكا هي الدولة الوحيدة القادرة على إرغام إسرائيل على الانسحاب من الضفة الغربية وقطاع غزة، وإنهاء العقوبات المفروضة على العراق.

وفي ضوء فشل أمريكا في العمل على تغيير الواقع المزري والتمادي في إهانة العرب ودعم إسرائيل، أصبحت هدفا للنقد من قبل المثقفين العرب، والشكوى من قبل الساسة، والعنف من قبل المنظمات الإسلامية المتطرفة.

الفقر والعولمة

يشير تقرير قدمه المدير العام للصندوق العربي للتنمية الاقتصادية والاجتماعية السيد عبد اللطيف الحمد، وذلك يوم 4 نوفمبر 2001 إلى سوء الأوضاع العامة في البلاد العربية. وعلى سبيل المثال، يشير التقرير إلى تزايد عدد السكان العرب من حوالي 100 مليون في العام 1970 إلى حوالي 280 مليون في العام 2000، والى ان استمرار معدلات النمو الحالية سوف يصل بعدد السكان إلى 506 مليون في العام2025. وبينما تبلغ نسبة الأمية حوالي 25% لا يزال حوالي 9 مليون طفل عربي خارج صفوف الدراسة. إلى جانب ذلك، يعيش حوالي 62 مليون أو 22% من السكان العرب على دولار واحد أو أقل في اليوم، وأن 52% من المواطنين أو ما يزيد عن 145 مليون شخص يعيشون على 2-5 دولارات في اليوم فقط. وبينما لا تزال حوالي 75% من السناء خارج سوق العمل، تتجاوز نسبة البطالة 20% من الأيدي العاملة العربية.

من ناحية أخرى، استمرت صادرات المواد الغذائية العربية في التراجع لتصل إلى 5 بليون دولار سنويا، بينما استمرت الواردات في التصاعد لتتجاوز 35 بليون في السنة. اما الصادرات من المواد الصناعية فتبلغ حوالي 28% من الواردات فقط، مما يؤدي إلى تزايد العجز في الميزان التجاري. وفي الواقع، دخلت الاقتصاديات العربية اجمالا حالة من الركود في أوائل الثمانينات من القرن الماضي، مما جعل معدل الدخل الفردي- في ضوء ارتفاع معدلات التزايد السكاني- تتراجع باسمرار، حيث بلغت في العالم 2000 حوالي 75% مما كانت عليه في العام 1980. ورغم ارتفاع معدلات الدخل الفردي في بعض الدول العربية المصدرة للنفط،

فإن إجمالي الناتج القومي لجميع الدول العربية التي تبلغ أعداد سكانها حوالي 300 مليون شخص في الوقت الراهن لا يزيد كثيرا عن القيمة السوقية لشركة مايكروسوفت.

ان تردي الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية وانتشار الفقر والحاجة يتزامنان اليوم مع غياب الحريات السياسية وتزايد جشع الأغنياء واستفحال الفساد بكافة أشكاله. إلى جانب ذلك، تسببت العولمة في تكريس تلك الأوضاع وزيادة حدتها في بعض الحالات، حيث ساهمت في توسعة الفجوة التي تفصل الأغنياء عن الفقراء وإضعاف قدرة الحكومات عامة على تقديم الخدمات للمحتاجين، وتعميق الفجوة الاجتماعية-الثقافية بوجه عام.

في مثل هذه الأوضاع يصبح من الطبيعي انتشار الشعور باليأس وخيبة الأمل والإحباط الذي يدفع أحيانا إلى التطرف الإديولوجي والعنف السياسي. وفي الواقع، يشعر الكثيرون من العرب، خاصة الشبان منهم، انه ليس لديهم ما يخسرونه سوى، كما قال ماركس، القيود التي تكبلهم، وهي قيود في أغلبها سياسية وثقافية. إن غالبية الجماهير العربية لا ترى نورا في نهاية النفق إذ أن الحياة بالنسبة لها عموما كانت ولا تزال نفقا معتما منذ البداية وحتى النهاية.

إن حالة العدم التي تعاني منها نسبة كبيرة من السكان العرب دفعت الأعداد الكبيرة من الفقراء والجهلاء والمحبطين إلى التوجه نحو الدين والتمسك بتعاليمه حسب إرشادات قيادات دينية متعصبة ومتخلفة في غالبية الأحيان. وحيث أن الشهادة في سبيل الله والوطن هي أقصر الطرق الموصلة إلى الجنة الموعودة، فإن التطرف والاستعداد للموت أصبحت من الأمور المقبولة، بل وأحيانا من الأهداف المنشودة. وبما ان الشهادة لا تتحقق إلا من خلال محاربة العدو دفاعا عن الدين أو الوطن فإن حياة العدو المستهدف أصبحت بلا قيمة في نظر طالب الشهادة، بل أصبح البعض ينظر إليها كعقبة لابد من تجاوزها للوصول إلى الهدف. وهذا يعني أن ظواهر الإرهاب الذي التصق بالإسلام اليوم ذات جذور اقتصادية-اجتماعية-سياسية تتجاوز بن لادن، بل وتتجاوز الإسلام نفسه أيضا.

الحرب على الإرهاب

أعلن الرئيس الأمريكي بوش في أعقاب أحداث سبتمبر 2001 الحرب على الإرهاب. وحيث أن الإرهاب يعتبر إحدى ظواهر الحياة التي رافقت المجتمعات الإنسانية خلال تاريخها الطويل، فان النصر الكامل على الإرهاب لن يتحقق إطلاقا. وهذا لا يعني وجوب التخلي عن محاربة

الإرهاب، بل يستوجب فهم دوافعه الحقيقة والتوجه نحو التعامل مع تلك الدوافع من أجل محاصرة الإرهابيين واحتواء الإرهاب وتقويض دعائمه الأساسية.

إن المحبطين الذين يشعرون بأنه ليس لديهم ما يخسرونه من الانخراط في صفوف الإرهابيين يشعرون دوما بأن حياتهم لا تساوي الكثير، وأن التضحية بها في سبيل عمل نبيل لا تتعارض مع التضحية بحياة آخرين من أجل تحقيق الهدف المنشود. ان هزيمة المتطرفين وتقويض قدرتهم على الاقناع هي السبيل الوحيد لهزيمة خلايا الإرهاب وأدواته، وهذه لن تتحقق إلا من خلال هزيمة منطق الإرهاب ومرتكزاته الفكرية-العقائدية والتعامل بإيجابية وواقعية مع أسباب وظواهر المعاناة والإحباط التي تسود حياة المجتمعات العربية عامة.

أعلنت الولايات المتحدة في الستينات من القرن العشرين الحرب على الفقر، إلا أن طبيعة الفقر المعقدة وفشل الحكومة الأمريكية في معالجة أسباب الفقر أدت إلى فشل الحملة على الفقر واضطرار الحكومة الأمريكية إلى التخلي عن مخططاتها وأهدافها. وبعد عقد من الزمن أعلنت الحكومة الأمريكية الحرب مجددا على تجارة المخدرات. والآن وبعد مرور حوالي 3 عقود على بدء تلك الحرب لا تزال الحرب على أشدها ولا تزال أعداد المعارك الفاشلة تتجاوز أعداد المعارك الناجحة. وفي الواقع، أصبحت المخدرات اليوم أكثر رواجا في الأسواق الأمريكية وأسعارها أقل مما كانت عليه حين بدء الحرب ضد المخدرات قبل حوالي 30 عام. وفي اعتقادي لن يكون مصير الحرب على الإرهاب أفضل بكثير من مصير الحرب على الفقر وعلى تجارة المخدرات الا إذا اتجهت أمريكا إلى فهم طبيعة الإرهاب وأسبابه وتحديد دوافعه والتعامل معها باخلاقية من خلال عمل دولي يقوم على التعاون و التكامل واحترام المصالح والحقوق المتبادلة لكافة الأطراف المعنية.

رغم أن الإرهاب الدولي هو القضية المطروحة اليوم، فإن الإرهاب اتجه منذ السبعينات من القرن العشرين إلى التركيز على الساحات الوطنية والتخلي على الساحة الدولية. إن الأعمال الإرهابية تقتل مئات الأبرياء يوميا في بلاد مثل الجزائر وسيرالانكا وكولمبيا والهند ونيبال وباكستان وفلسطين والفلبين وروسيا والسودان إضافة إلى العديد من الدول الأسيوية والإفريقية والأمريكية اللاتينية الأخرى. ان احصاءات هيئة التحقيقات الفيدرالية الأمريكية (FBI) تشير إلى أن عدد الأعمال الإرهابية التي وقعت في أمريكا في العام 1996 بلغت حوالي 2600 عملا. وإذا كان من الصعب على الحكومة الأمريكية كسب الحرب على الإرهاب

داخل الولايات المتحدة الأمريكية نفسها حيث تستحوذ الحكومة على سلطة مطلقة ومؤسسات فاعلة فكيف يمكن لأمريكا ان تنتصر على الإرهاب الدولي ذا الطبيعة المعقدة وفي غياب التواجد العسكري والمؤسسي الفاعل خارج الحدود الأمريكية.

ورغم أن معظم الأعمال الإرهابية تتم داخل حدود الدولة الواحدة ألا ان تدخل أطراف أجنبية في الصراعات الوطنية والمشاكل الاقليمية يجعل تلك الأطراف أهدافا مشروعة لعمليات إرهابية دولية. وفي هذا السياق كتب David Ignatius في جريدة الواشنطن بوست يوم 30 سبتمبر 2001 يقول:" لقد تحالفت أمريكا في الكثير من الأحيان مع حكومات استبدادية في العديد من الدول الإسلامية وذلك من أجل حماية مصادر الطاقة الغربية. ان أمريكا لا تعير انتباها لحياة الإنسان العادي في ذلك الجزء من العالم. إن أمريكا تبدو خائفة حتى من مجرد الإشارة إلى مبادئ الديمقراطية وحماية حقوق الإنسان في العالم العربي".

إن حملة ناجحة ضد الإرهاب لابد وأن تبدأ بحملة ضد التطرف العقائدي والديني والظلم الاجتماعي والاقتصادي، وليس فقط ضد تطرف الأفراد الذي يمكن التعويض عنهم في حالة قتلهم. ان مثل هذه الحملة، كي تضمن الحد الأدنى من فرص النجاح، لابد وأن تأتي ضمن خطة سياسية شرق أوسطية جديدة تتوخى العدالة في التعامل مع حقوق ومظالم الشعب الفلسطيني، وتعمل على إنهاء المعضلة العراقية والعقوبات الاقتصادية المفروضة على الشعب العراقي، وتقوم على احترام الكرامة والمصالح العربية. لقد قالت جريدة الواشنطن في افتتاحيتها الرئيسية يوم 2 ديسمبر 2001:" يكمن الخطر في الحوار الدائر حول الهدف الأكبر للحملة العسكرية ضد الإرهاب في إهمال قضية حشد الجهود والطاقات المطلوبة لتغيير الواقع الاقتصادي-السياسي والعقائدي والأنظمة التي تغذي الإرهاب وتوفر له البيئة الصالحة للنمو. إن شيئا كهذا حدث بعد حرب الخليج حين تحولت الخطط التي استهدفت احداث تحولات سياسية جذرية في الشرق الأوسط إلى عملية سلام عربية-إسرائيلية ضيقة الأفق والهدف. وبعد مرور عقد من الزمن على تلك الحرب كان الفشل في تغيير الواقع العربي سببا في مضاعفة الخطر الذي يتهدد مصالح الغرب والذي يجسده بن لادن".

هل باستطاعة الغرب، وأمريكا بالذات، أن تربح الحرب ضد التطرف العقائدي والظلم الاجتماعي وحدها؟. إن الجواب المباشر هو "لا". إن القوى العربية العلمانية والقوى السياسية المعتدلة هي وحدها القادرة على قيادة الحملة ضد الإرهاب وتحقيق النصر عليه في المدى

الطويل. لكن التاريخ الحديث يشير إلى أن القوى القومية والعلمانية والتحررية العربية تعرضت وباستمرار للكبت والترهيب والعزل السياسي في أوطانها، وان الغرب عامة والقوى الاستعمارية الأوربية خاصة، تصرفت على أساس أن تلك القوى تشكل خطرا أكبر وأهم من القوى الدينية-الإسلامية في العالم العربي. إذ بينما سمحت الدول الغربية عموما للقوى الإسلامية المتطرفة باللجوء إليها وقامت أحيانا بالدفاع عنها، قامت تلك الحكومات بدعم الأنظمة العربية الاستبدادية وتمكينها من كبت وإرهاب القوى القومية التحررية.

اليوم، وبسبب التخوف من حدوث ردود فعل شعبية ضد حالة التخاذل السياسي والتراجع الاقتصادي والتفكك الاجتماعي، تقوم غالبية الأنظمة العربية بمهادنة، وأحيانا السكوت على تصرفات القوى الدينية المتطرفة. وفي الوقت ذاته تقوم تلك الأنظمة بمحاصرة القوى القومية اللبرالية، خاصة المطالبة منها بالديمقراطية والحرية وتأطير العمل العربي المشترك وتفعيله. وهذا جعل تلك القوى عموما خارج إطار التفاعلات الثقافية والاجتماعية والسياسية الجارية على الساحة العربية، خاصة في ضوء حرمانها من حق الوصول إلى الجماهير العربية من خلال وسائل الإعلام التي تملكها وتسيطر عليها وتوجهها أنظمة الحكم القائمة . لذا، ومن اجل إعطاء القوى اللبرالية المعتدلة فرصة النصر على التطرف الديني والثقافي والظلم الاجتماعي، لا بد من حصول تلك القوى على حقها في الكتابة والنشر بحرية، والوصول إلى الجماهير ومحاورتها بصراحة، والمشاركة في العملية السياسية ونقد السياسات الحكومية وأداء المسؤولين. ويجب أن يأتي ذلك كله من خلال إطار قانوني-سياسي- اجتماعي يعترف بحرية الفكر والتنظيم ومساواة المواطنين في الحقوق والواجبات، ويحمي تلك الحقوق ضد قوى الجهالة الثقافية والاجتماعية المتنامية في الوطن العربي. ويؤسفني القول أن استمرار الأوضاع الحالية لعقد أو عقدين من الزمن على الأكثر سيؤدي إلى انتصار قوى الجهالة الثقافية والتطرف الديني بشكل يجعل التفكير في التغيير والأمل في تحقيق التقدم ومعايشة العصر مجرد ترف فكري لا يقوى على ممارسته سوى مثقفي الغربة والاغتراب المتواجدين خارج ساحات المخاض الشعبي الرئيسية.

وإلى جانب هذه المطالب بالنسبة للساحة العربية، لابد من قيام الحكومة الأمريكية برسم سياسة شرق أوسطية جديدة تقوم على الأخلاق ومبادئ العدل والمساواة واحترام حقوق ومصالح الشعوب العربية وقرارات هيئة الأمم المتحدة، خاصة فيما يتعلق بالصراع العربي-

الإسرائيلي والقضية العراقية. قال الكاتبان Kai Bird و Martin Sherwin في مقالة نشرتها جريدة الواشنطن بوست يوم 12 ديسمبر 2001:"تحتاج أمريكا إلى سياسة خارجية مختلفة جذريا عن سياستها الحالية، ان كل سياسة مفرغة من المبادئ الأخلاقية هي سياسة غير واقعية وغير عملية، حتى تحقيق النصر في أفغانستان لن يكفي لحمايتنا من الإرهاب إذا واصلنا تعاوننا مع أنظمة حكم استبدادية تضطهد وتظلم شعوبها".

ما العمل؟

إن خطة عمل قادرة على هزيمة التطرف الديني في المدى الطويل ومحاصرة عوامل التخلف والاحباط في الحياة العربية في المدى القصير لا بد من أن تقوم على رؤية علمية-انسانية-عصرية للواقع وتستهدف تحقيق تحولات اجتماعية-ثقافية وسياسية- اقتصادية عميقة في ذلك الواقع. وهذا يستوجب بدوره التحرك في أربعة مسارات رئيسية، هي:

1. مسار قانوني يستهدف المنظمات الإرهابية ويعمل على إنهاء وجودها الفاعل على الساحة العربية.
2. مسار سياسي يستهدف حل كافة جوانب النزاع العربي-الإسرائيلي وينهي الحصار المفروض على العراق وشعبه.
3. مسار ثقافي-اجتماعي يعترف بالحرية السياسية والفكرية حقا للجميع، وبالثقافة كيانا اجتماعيا متطورا ومتعدد الألوان والمشارب، ويقر بان العدالة الاجتماعية والمسؤولية المجتمعية واجبا حكوميا لا يقبل المساومة أو التأجيل.
4. مسار اقتصادي يستهدف الخروج من الركود الاقتصادي الحالي ويعمل على تحقيق التنمية على أسس من العدالة وتكافؤ الفرص.

دخل اللبراليون والمحافظون العرب معركة الثقافة منذ أواسط الستينات في القرن العشرين حيث كان النصر في أغلبية الجولات المتتابعة من نصيب المحافظين والمتدينين. وتعود العوامل التي أسهمت وما تزال تُسهم في زيادة جاذبية الأفكار المحافظة، وتقوم بتمهيد الطريق أمام التطرف الديني والتزمت الثقافي إلى عوامل عدة، أهمها:

1. فشل أنظمة الحكم العربية المعتدلة في التجارب مع مطالب الشعوب وتحقيق وعودها في المجالين السياسي والاقتصادي.
2. اتجاه الأنظمة العربية عموما إلى كبت تطلعات وحظر نشاطات القوى المطالبة بالحرية والعدالة الاجتماعية والديمقراطية من ناحية، والقيام بمهادنة القوى المتزمتة، خاصة الدينية والثقافية منها من ناحية ثانية.
3. اتجاه قوى التطرف الديني عامة إلى توجيه جل غضبها ضد إسرائيل وأمريكا وليس ضد أنظمة الحكم العربية التي تخشاها وتخاف بطشها.
4. فشل القوى العربية الليبرالية والقومية على السواء في تطوير رؤية مستقبلية قادرة على إثارة حماس الشباب وجذب غير الملتزمين من القوى الشعبية، ومنح الأمل للمحبطين.

لقد ساهمت رسالة القوى الدينية في تعزيز قدرة التطرف على كسب معركة الفكر والأخطار في غالبية البلاد العربية إذ بينما كثيرا ما يتعدد فشل الحكومات المعتدلة والأفكار العلمانية في الوفاء بوعودها للجماهير، قلما فشلت المنظمات الدينية في التجارب مع احتجاجات الاتباع والمؤمنين وذلك لأنها لا تعدهم عادة بأي شيء يذكر على هذا الأرض. ولذا، وبينما يمكن تحديد الفشل في أداء الحكومات والأفكار غير الدينية ليس بالإمكان تحديد الفشل في مشاريع المنظمات الدينية.

الخلاصة

قبل حوالي خمسين عاما، كانت الدول الاستعمارية عموما، خاصة بريطانيا وفرنسا هدفا لكراهية العرب وعدائهم، بينما كانت الولايات المتحدة الأمريكية محط أنظارهم واحترامهم. وعلى سبيل المثال، لا يزال العرب يذكرون بتقدير واحترام الموقف الأخلاقي الذي اتخذه الرئيس الأمريكي ايزنهاور عندما أمر بوقف الحملة العسكرية البريطانية-الفرنسية-الإسرائيلية المشتركة ضد مصر في العام 1956 وأجبر القوات المعتدية على الانسحاب. الآن، وفي ضوء الانحياز الأمريكي الكامل لسياسات إسرائيل التوسعية من ناحية، واتجاه أوربا عموما إلى اتخاذ مواقف أكثر أخلاقية وحيادية تجاه العدوان والاحتلال الإسرائيلي من ناحية ثانية، انعكس الموقف العربي تماما. إذ بينما أصبحت الدول الأوربية خاصة فرنسا وألمانيا وإيطاليا تحظى باحترام الشارع العربي بوجه عام، أصبحت أمريكا مصدر قلق ومخاوف ذلك الشارع، كما أصبحت سياستها الشرق أوسطية رمزا للعدوان على حقوقه وكرامته وهدفا لكراهيته. إن ما

يبديه العرب، حكومات وشعوبا اتجاه أمريكا اليوم هو الخوف وليس التقدير، هو الرهبة وليس الاحترام.

عندما اتجهت القوى الاستعمارية الأوروبية إلى تفكيك مشروعها الاستعماري وتغيير موقفها من القضايا والمظالم العربية، أبدى العرب ترحيبا كبيرا بالتوجهات والمواقف الأوربية الجديدة واتجهوا نحوها بقلب وعقل مفتوحين للتعاون من أجل خدمة المصالح المشتركة. ولقد اشتملت المتغيرات في المواقف والسياسات الأوروبية تقديم المعونات الاقتصادية، نقد السياسات الإسرائيلية في الأراضي العربية المحتلة، ودعوة إسرائيل على وقف الاستيطان واحترام القرارات الدولية.

لقد بدأت الولايات المتحدة تفقد احترام وحب العرب لها في أواخر الخمسينات من القرن الماضي بسبب موقفها المناوئ لحركة القومية العربية. وبعد اتضاح حجم وعمق الانحياز الأمريكي لاسرائيل في أواخر الستينات انتقل الشعور العربي من مرحلة عدم الاحترام إلى مرحلة الكراهية للسياسة الأمريكية العدائية. وفي الواقع، رغم الادعاءات الأمريكية المتكررة والكاذبة بانها تقوم بدور الوسيط المحايد في الصراع العربي-الإسرائيلي، أصبحت أمريكا طرفا في العدوان اليهودي على الأرض والحقوق العربية منذ أن التزمت بدعم إسرائيل وحمايتها وتحقيق تفوق الأخيرة العسكري على البلاد العربية. إذ كان ذلك سببا في تمكين الدولة اليهودية من امتلاك أسباب القوة لمواصلة العدوان والاحتلال والتوسع دون رادع.

تقدم الولايات المتحدة لإسرائيل اليوم، ومنذ أكثر من عشرين عاما، حوالي 1000 دولار كل دقيقة، 60.000 دولار كل ساعة، وما يقارب 14 مليون دولار في اليوم وذلك على شكل معونات عسكرية واقتصادية. وتقدر المعونات التي وصلت إسرائيل من أمريكا منذ قيام الدولة اليهودية في العام 1948 بحوالي 150 مليار دولار. وفي ضوء المعانات الفلسطينية منذ العام 1948، وحرمان غالبية الشعب الفلسطيني من حقه في العودة إلى وطنه وأرضه التي طرد مها منذ أكثر من 35 عاما، يبدو من الصعب فهم المنطق الأمريكي وازدواجية الموقف السياسي. إذ بينما وقفت أمريكا ضد سياسة التفرقة العنصرية في جنوب افريقيا تستمر اليوم في دعم التفرقة العنصرية التي تمارسها الدولة اليهودية في فلسطين، وبينما أصرت أمريكا، وبحزم منقطع النظير، على قيام العراق بتطبيق قرارات هيئة الأمم المتحدة، تبذل كل ما لديها من جهد للحيلولة دون تطبيق قرارات هذه الأمم المتحدة الخاصة بفلسطين. ومن أجل تحقيق هذا الهدف استخدمت

أمريكا حق النقض (الفيتو) 6 مرات من كل 7 مرات للحيلولة دون توجيه النقد لسياسات إسرائيل التوسعية وأعمالها العدوانية ولتعطيل تطبيق القرارات الدولية. وهذا يعني أن أمريكا تحصد ثمار ما زرعته من عداء في البلاد العربية، وأن ما تواجهه اليوم من غضب عربي عارم وكراهية عميقة لسياستها الشرق أوسطية هي ثمار مواقف عدائية، وسياسة غير أخلاقية. وعليه لا يجب أن تلوم أمريكا أحدا غير نفسها، وغير اوضاع سياسية داخلية تضع المصلحة الشخصية فوق المصلحة العامة والمواثيق الدولية. بينما تحدد الولايات المتحدة موقفها المعادي للإرهاب بصراحة ووضوح، تبدو غير قادرة على تحديد ما تقف معه من قضايا شرق أوسطية. وهذا يجعلها تدخل دوامة التطرف الإيديولوجي الذي يعرف عادة ما يعادي من الأفكار، ولا يعرف غالبا ما يريده من سياسات ومواقف.

ان ما تطلبه الجماهير العربية والمثقفون العرب من أمريكا اليوم هو شيء بسيط وواضح، ومن السهل ان يحظى بقبول وحماس دولة أمريكية ذات مواقف مبدئية وليست ادارت حكومية انتهازية وسياسات غير أخلاقية. ان أمريكا مطالبة بان تحترم المبادئ الأخلاقية التي ينص عليها الدستور الأمريكي والتي تقوم الإدارات الأمريكية بممارستها داخل أمريكا. إذ يطلب العرب من الأمريكيين الوقوف الى جانب مبادئ الحرية والديمقراطية واحترام حقوق الإنسان، كل إنسان، وحق كل الشعوب في تقرير المصير، وذلك لأن السياسات الانتقائية هي سياسات انتهازية غير أخلاقية. كذلك يطالب العرب أمريكا بالتخلي عن ازدواجية المواقف والسياسات حيال قرارات هيئة الأمم المتحدة، والعمل على إنهاء الاحتلال والاستيطان والعدوان الإسرائيلي انسجاما مع تلك القرارات.

قال Kai Bird و Martin Sherwin في المقال الذي اشرنا إليه سابقا:" تحتاج أمريكا إلى سياسة ذكية قادرة على التعامل مع المظالم التي تقوم اليوم بتغذية عمليات الانتحار الغاضب. اننا بحاجة ماسة الى التحاور مع العالم وليس السيطرة عليه". ويضيف Robert Wright القول" أن من مصلحة أمريكا التعامل بإيجابية مع المظالم قبل أن تتجذر وتغدو إرهابا". (Slate-MSN.com- 19 نوفمبر 2001). أما E.J.Dionne Jr. فقد كتب في جريدة الواشنطن بوست يوم 23 نوفمبر 2001 يقول" ان أخطاء أمريكا في العالم لا تعود الى محاولة ممارسة ما تؤمن به من مبادئ، وإنما بسبب قيامها بإهمال تلك المبادئ". أما David Ignatius فقد قال يوم 30 سبتمبر 2001." كي تنجح الحملة ضد الإرهاب لابد وأن تكون

الحرب حرب تحرير أيضا. أن أمريكا تقاتل اليوم حرب تحرير، ليس فقط من الإرهاب بل وأيضا من الظروف التي تغذي الإرهاب". ولكن هل حقا تحارب أمريكا من أجل تحرير الإنسان من البيئية بالمفحمة بالظلم والفقر التي تغذي الإرهاب؟ أليست السياسات الأمريكية العمياء المنحازة ضد العرب وإلى جانب عدوهم الأهم هي جزء لا يتجزأ من البيئة التي تغذي الإرهاب؟ وهل بإمكان ساسة أمريكيين تربوا على النفاق والكذب والخداع واتجهوا عموما إلى التخلي على المبادئ والأخلاق وبيع ضمائرهم في المزاد من أجل المال القدرة عن الوقوف مع هذا العدل؟ إن التجربة التاريخية عبر نصف القرن الماضي تشير إلى أن العملية السياسية الانتخابية في أمريكا هي معصرة تأخذ كل ما في المرشح من ضمير وأخلاق ومبادئ وتتركه عرضة لسطوة وإغراءات المال القذر ومناخات الفساد السياسي وأجواء الرذيلة بحثا عن المتعة الشخصية والمصالح الذاتية وذلك على حساب المصلحة الوطنية ومبادئ العدل الإنسانية.

الدكتور محمد ربيع هو أستاذ الاقتصاد السياسي الدولي. ولقد عاش ودرس وقام بالتدريس في اربع قارات مختلفة، وصدر له حتى الآن 40 كتابا، 30 باللغة العربية و10 باللغة الإنجليزية. كما قام بإلقاء محاضرات في نحو 80 جامعة ومعهد دراسات علمي، وشارك في نحو 70 مؤتمرا علميا وسياسيا في مختلف بقاع العالم. إن كتاباته وعلاقاته المهنية والأكاديمية تعكس عمق التزامه بمبادئ السلام والحرية، والتنمية الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، والحوار بين الثقافات والشعوب المختلفة.

د. محمد عبد العزيز ربيع

www.yazour.com